مجلة رفـوف
المجلد: السابع /العدد: الثالث
ISSN: 2335-1381
سبتمبر 2019

استثمار مؤلفات الجاحظ في صناعة المعاجم

ـ الآليات والأهداف ـ

Investing the Works of al-Jahiz in Lexicography

– Mechanisms and Objectives-

الدكتور: محمد حاج هني، جامعة الشلف

- البريد الإلكتروني: mohamedhadjhenni@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/07/05	تاريخ القبول:2019/09/24	تاريخ النشر:2019/09/30

الملخص:

لقد بثّ الجاحظ (ت255هـ) في أغلب ما ألفّه مجموعة كبيرة من الآراء اللغوية؛ كقضايا التطوّر اللغوي، ومسألة اللفظ والمعنى، والمستويات اللغوية التي تعدّ من أبرز مصادر الجمع في الصناعة المعجمية، فلم يقتصر معجمه اللغوي على اللفظ الفصيح وحده، بل فضّل استغلال كافة أشكال الاستعمال اللغوي الممكنة، وترك للمتكلّم حريّة اختيار المستويات اللغوية المناسبة بحسب المقام، وفي هذا البحث قراءة في مؤلفات الجاحظ الأدبية واللغوية المتنوّعة، مع إبراز كيفية استغلالها.

الكلمات المفتاحية: الجاحظ؛ صناعة المعاجم؛ المعجم التاريخي؛ المستويات اللغوية.

Astract :

In most of his writings, Al-Jahiz (255H) showed a wide range of linguistic views;like the linguistic development, and the issue of word and meaning,and the linguistic levels, which are one of the most important sources of collection in lexicography. He did not limit his linguistic dictionary on eloquent word only, but preferred to exploit all forms of possible forms of linguistic use,and left to the speaker the freedom to choose the appropriate linguistic levels according to the situation.This research explores the literary and linguistic works of Al-Jahiz, with an emphasis on how to use them as sources of collection in lexicography in Arabic language.

Keywords: Al-Jahiz; lexicography; historical dictionary; language levels.

المقدمة:

مثّل النشاط اللغوي في تجربة الجاحظ العربية القديمة مظهرا مهمّا من مظاهر ارتباط التطوّر الفكري بتطوّر الخطاب اللغوي بين ميدان المعرفة ونظام اللغة، بل كان ذلك النشاط أيضا شكلا فنيّا قائما على توسيع متعمّد لبنية اللغة العربية قصد استيعاب النشاط الاجتماعي الثقافي وإنتاج فكري علمي وأدبيّ لدى الجاحظ (ت255هـ)، ولهذا لا نعتقد أنّ البحث في تطوّر العربية ممكن بمنأى عن قضايا المعجم العامة سواء في المستوى النظري أو التطبيقيّ، على غرار المستويات اللغوية واستعمالها الفعلي.

وأردت في هذا البحث معالجة نصوص مختارة من مؤلفات الجاحظ (البخلاء والحيوان والبيان والتبيين والرسائل) باعتبارها نموذجا لعربية الاستعمال في عصر متقدّم من تاريخ هذه اللغة في علاقتها بما جاورها من اللغات والثقافات، وفي ذلك تتجلّى وظيفة مزدوجة يكاد يتفرّد بها الجاحظ؛ فهو من جهة عالم البيان العارف ببلاغة العرب وفصاحتها؛ ومن جهة أخرى شاهد على عربية عصره وحركة الواقع اللغوي آنذاك؛ لذلك احتار الدارسون في تصنيف كتابات الجاحظ الفنيّة، كما أعيا هذا العالم اللغويين في تتبّع مذهبه اللغوي، فهو تارة ألحن من العامّة، وطورا أفصح من خاصة الخاصة، وما ذلك إلاّ صورة حقيقية عن العلاقات اللغوية المتشابكة في عصر الجاحظ.

فأمّا الإشكالية التي تطرح نفسها في هذا الموضوع تحديدا هي كالآتي: كيف يمكن استثمار المؤلفات الأدبية واللغوية للجاحظ في صناعة المعاجم؟ وما هي أنواع المعاجم التي يمكن أن تعول على مادة مصنفاته المختلفة؟

1. مؤلفات الجاحظ:

للجاحظ عدّة مؤلفات أدبية وفكرية، تمثّل عصره أصدق تمثيل، فقد أوتي مقدرة فنية كبيرة، وحسّا أدبيّا مرهفا وذوقا عربيّا مهذبا، وتنقل في عدّة أوساط اجتماعية فنمت معارفه، وزادت تجاربه، فخالط الباعة والمجانين، وجالس الشعراء والأدباء، ونادم الملوك والوزراء، وخلّف أكثر من خمسين ومائتي كتاب، من رسائل مختصرة، ومقالات مطوّلة، وقصص وأضاحيك وأسفار، والجد والهزل والدرس، ولعلّ أشهر هذه الكتب التي وصلتنا[1]:

[1]– ينظر: عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، الجزائر، ص:80 وما بعدها.

– كتاب البيان والتبيين؛ وهو أشرف كتب الجاحظ "لأنّه جمع فيه من المنثور، والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به"[1].

– كتاب البخلاء، يعدّ هذا الكتاب من أهمّ الآثار الأدبية التي أبقت الأيام عليها من ميراث الجاحظ، وقد قصد بهذا الكتاب مواجهة العجم وفي ذلك فسحة لغوية أدبية مكنته من الإطلاع على اللفظ المقترض أو الدخيل.

– كتاب الحيوان الذي جمع فيه الجاحظ بين العلم والأدب، فقد يجد القارئ لهذا المؤلَّف غلى جانب المنهج العلمي، منهجا أدبيّا ومصادر هذا الكتاب هي: أشعار العرب وأخبارهم وأمثالهم، القرآن والحديث والتوراة والإنجيل، كتب العلوم المنقولة لا سيما كتب أرسطو، أبحاث في الحيوان والأخبار المترجمة، ونتائج الرحلات والاختبارات والتجارب والسماع والعيان[2].

2. دواعي استغلال مصنفات الجاحظ معجميا:

لعل استغلال المادة اللغوية الغزيرة لكتب الجاحظ في صناعة معاجم مختلفة، عامة ومتخصصة، نابع من عدة عوامل متباينة؛ لعل أبرزها:

أ– **العامل اللغوي:** تشكل كتب الجاحظ– بما تحمله من مادة لغوية ومضمون معرفي– مصدرا لغويا ثريا، كما تعد منابع أصيلة لكلام الفصحاء والبلاغيين والنقاد والمتكلمين، يمكن النهل منها في صناعة أنواع متعددة من المعاجم، كما ترصد هذه المنابع مختلف الاستعمالات اللغوية التي مارسها المتكلمون بعد عصر الاحتجاج؛ فهي تضم المفردات الفصيحة، والمولّدة، والعامية، والدخيلة.

[1]– آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، الدار التونسية للنشر، ط1986م، ج1، ص:392.

[2]– ينظر: جورج غريب،العصر العباسي نماذج نثرية، دار الثقافة بيروت، د ت، ص:54.

ب- العامل التاريخي: تعد مصادر الجاحظ خير شاهد على القرنين الهجريين الثاني والثالث؛ فهي تؤرخ لفترة زمنية تتسم بالثراء والتنوع من شتى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ج- العامل الثقافي: إنّ القارئ لمؤلفات الجاحظ يدرك بسهولة الوضعية الثقافية لهذا الرجل العبقري، ويدرك ملامح التفكير لدى هاته الشخصية الفذة، ويكشف أيضا عن مظاهر الحياة الثقافية للمجتمع العربي الإسلامي في عصر الجاحظ، وما صاحبها من تغيرات اجتماعية، وتطورات اقتصادية وثقافية.

د- العامل الحضاري: توضح مؤلفات الجاحظ معالم التطور الحضاري للأمة العربية الإسلامية، وما شهدته من رقي في مختلف أصناف المعرفة والعلوم، وما أنتجه العقل العربي المنفتح على حضارات الأمم المجاورة من ألفاظ حضارية دالة على أسماء الأدوات والآلات في مختلف الصنائع والحرف، وما برع فيه الناس في زمان الجاحظ من أصناف الأطعمة والملبوسات والجواهر والأثاث وغيرها من مظاهر الحضارة في الفترة العباسية الزاهية.

3. أشكال استثمار كتب الجاحظ في صناعة المعاجم:

إنّ الحديث عن استغلال مصنفات الجاحظ في صناعة أنواع معجمية حديثة يتطلب الإشارة إلى الجهود المبذولة في هذا المجال؛ والتي يمكن تقسيمها إلى ما هو منجز في الثقافة العربية، و إلى ما ينتظر التجسيد فعليا مستقبلا؛ ويمكن الاستدلال على المنجز منها بهذين النموذجين:

أ- من معجم الجاحظ:

هو معجم ألفبائي يضم 485 صفحة، تشتمل على 822 مفردة، وضعه إبراهيم السامرائي، صدر عن دار الرشيد للنشر بالعراق عام 1982م، كان غرض الكاتب من وضعه الرجوع إلى كتب الجاحظ لجمع الرصيد المعجمي الذي توزع على مصنفاته؛ وذلك لإثبات هذه الألفاظ:

- اللفظ القديم الذي ذكره الجاحظ وعفى عنه الزمان في عصره، وهو مفيد لنا لو أحسنا إحياءه.
- اللفظ القديم الذي كان من مادة المصطلح العلمي، ويحسن بنا الاستفادة منه في عصرنا.
- اللفظ الأعجمي الدخيل مما عربته العرب أو لم تعربه، وفي ذلك فائدة حضارية تكشف اتصال العربية بغيرها من اللغات.
- اللفظ العامي الذي استخدمه الجاحظ لغرض ما.
- اللفظ الفصيح الذي افتقدناه في العربية المعاصرة، وأبقيناه في اللغة الدارجة.
- اللفظ الذي يكشف عن خصيصة جاحظية كان يتفرد بها في صوغه وبنائه.
- اللفظ الذي تفرّد به الجاحظ، ولم يعثر عليه في المظان اللغوية.
- اللفظ الذي ولّده العوام في عصره مما لا يمكن أن يوجد له أصل قديم[1].

ب- ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ:

هو قاموس موضوعي وضعته طيبة صالح الشذر، يقع في حدود 664 صفحة، طبعته دار قباء للنشر والتوزيع بالقاهرة عام 1998م، ويعد هذا المصنّف رصيدا جامعا للألفاظ الخاصة بالحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية

[1]- ينظر: إبراهيم السامرائي، من معجم الجاحظ، دار الرشيد للنشر، العراق، ط:1، 1982م، ص:10.

والعلمية، فهو بمثابة قراءة لغوية معجمية لنمط الحضارة، وحقائق المجتمع في ضوء ألفاظ تناولتها الكاتبة انطلاقا من مدونة محددة جسدت مؤلفات الجاحظ.

ينقسم هذا المعجم إلى أربعة فصول تتعلق بمجالات الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعلمية، يضم كل واحد منها حقولا فرعية؛ فالفصل الأول مثلا يضم ألفاظ البيئة الجغرافية، والملابس والحياة اليومية والعادات، واللهو والصيد، واللغة والعادات الاجتماعية[1]، واشتمل فصل الحياة الاقتصادية على المفردات الخاصة بالزراعة، والصناعة، والتجارة، والملاحة[2].

4. استغلال كتب الجاحظ في صناعة المعجم التاريخي:

يمكن استثمار الثروة اللغوية لمؤلفات الجاحظ من طرف المعجميين في بناء عدة أنماط معجمية، لعل أبرزها المعجم التاريخي؛ والذي يعرفه علي القاسمي بأنّه نوع من المعاجم، عادة ما يكون أحادي اللغة، يرمي إلى تزويد القارئ بتاريخ الألفاظ، مبنى ومعنى، من خلال تتبع تطوّرها أو تغيّرها منذ أقدم ظهور مسجّل لها حتّى يومنا هذا، وهدف هذا النمط من المعاجم هو توثيق كلّ لفظ في شكله ومعناه واستعماله اعتمادا على النصوص المكتوبة المدوّنة، أو النصوص المنطوقة المسجّلة، مع تفسير التغيّر اللغوي في ضوئها، فاللغة تعبير عن الفكر، والتحولات التي تصيبها تتحكمّ فيها قوانين الفكر، ويطلق أحيانا على المعجم

[1]– ينظر: طيبة صالح الشذر، ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 1998م، ص: 16 وما بعدها.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص:221 وما بعدها.

التاريخي اسم المعجم العام أو المعجم الشامل، أو المعجم الجامع، ولكنّ التسمية المفضلة هي المعجم التاريخي[1].

تتوزّع المصادر في المعجم التاريخي- بوصفه معجما مختصّا- اعتمادا على ثلاثة معايير هي: الزمن، والجنس، والمادّة، وفي ذلك يرى إبراهيم بن مراد أنّ المصادر تصنّف من حيث الزمن إلى طبقات يعدّ أقدمها أفضلها قيمة، وأعلاها حجة، وأوثقها مرجعيّة؛ وهي تصنّف من حيث الجنس إلى أعجميّة وعربية إسلاميّة، ثمّ تصنّف من حيث المادة إلى علميّة مختصة، ولغويّة عامة"[2].

وبالتالي نجد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في طليعة هذه المصادر، ثمّ أمهات الكتب، والمعاجم التراثية، ويمكن أخذ الكتب والرسائل والمخطوطات التي تمثل كلّ حقبة تاريخية من التطوّر اللغوي كنماذج لاستنطاق ما فيها من فصيح ومولّد ودخيل وغيرها من المفردات.

وتأسيسا لهذا الغرض في الوسع استغلال مؤلفات الجاحظ (ت255هـ) التي تمثل ثقافة العصر العباسي وعلومه للوقوف على مصادر الجمع لصناعة المعجم التاريخي للغة العربية في تلك الفترة من العصر الذهبي.

---

[1]- ينظر: علي القاسمي، صناعة المعجم التاريخي للغة العربية، مكتبة لبنان ناشرون، ط:1، 2013م، ص:46-47.

[2]- إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م، ص:72.

5. المستويات اللغويّة في كتب الجاحظ:

يتمّ تصنيف الوحدات المعجمية في أي معجم من حيث درجة فصاحتها إلى أربعة مستويات لغويّة، جعلها أهل الاختصاص على هذا النحو[1] :

أ- **الفصيح:** ويضمّ المفردات المأخوذة من المعاجم اللغوية العامة، والتي تعدّ مصادر أساسية في اللغة العربية، لأنّها تخضع لشروط الاحتجاج، بشقيه الزّماني والمكاني.

ب- المولد: ويشمل الألفاظ العربية التي وضعها المولّدون بعد عصر الاحتجاج في مختلف عصور العربية، وينقسم باعتبار الزمن إلى قديم وحدي، وفي هذا الصدد يشير الجاحظ في كتاباته إلى عدة مفردات يمكن وصفها من المولّد؛ ومن أمثلة هذه الكلمات المحدثة ما ذكره تحت عنوان: كلمات إسلامية محدثة؛ يقول فيه الجاحظ: "وأسماء حدثت ولم تكن وإنّما اشتقت لهم من أسماء متقدمة على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم كأبي رجاء العطاردي بن سالمة، وشقيق بن سالمة، ومن الشعراء النابغة الجعدي، وابن مقبل وأشباههم من الفقهاء والشعراء، ويدلّ على أنّ هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنّهم في الجاهلية لم يكونوا يعلمون أنّ ناسا يسلمون وقد أدركوا الجاهلية، ولا كانوا يعلمون أنّ الإسلام يكون، ومن المحدث المشتق اسم منافق لمن راءى بالإسلام، واستسرّ بالكفر، أخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والداماء، ومثل المشرك والكافر"[2].

ج- الأعجميّ: هو كلمة دالة على المفردات المقترضة من اللغات الأجنبية، وينقسم اللفظ الأعجمي إلى نوعين هما المعرّب والدخيل، ومن هذه الزاوية تنزّل

---

[1]- ينظر : إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، ص:70 ، ومسائل في المعجم، إبراهيم بن مراد،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، ص:94

[2]- الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1388هـ-1969م، ص:330

الدراسة المعجمية الاقتراض بالضرورة ضمن حركة التجديد اللغوي، باعتباره من العوامل الأساسية في تطوير المعجم، واللغة عموما.

ولكن مع هذا كلّه بقي المقترض بالنسبة للجاحظ قابلا للتمييز من خلال تباينه مع الكلمات الفصيحة في درجة المحافظة على قواعد اللغة الصوتية والصرفية والدلالية والتركيبية.. فبينما تحافظ الكلمات الفصيحة على تطبيق تلك القواعد نجد المقترضات تشذّ عنها إن جزئيّا أو كليّا وفق درجة انصهارها في نظام اللغة العربية[1]، وهذا ما يتجلى في هذه المقترضات الأعجمية: إشكنج[2]، أُشنان[3]، الجُلاهق[4]، أشترنج (الشطرنج)[5].

د- العامي: وهو كل لفظ عربي غير فصيح تستعمله العامة من العرب في لهجاتها استعمالا ساذجاً عفويّا[6]، ولهذا لا يتردد الجاحظ في اعتماد لغة الاستعمال نفسها عندما يتعلق الأمر بنقل وصف أو تسجيل حوار مراعاة لطبيعة المتكلمين وما يشيع في لغتهم من ألفاظ خاصة[7]، وهذا ما يبرزه في كتابه البخلاء"فإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ولفظا معدولا عن جهته، فاعلموا أنّا إنما تركنا ذلك لأنّ الإعراب يبغض هذا الكتاب ويخرجه من

---

[1]- ينظر: الحبيب النصراوي، الجاحظ معجميّا، مركز النشر الجامعي، تونس، ط2، 2016م، ص:237.

[2]- قطع الحجارة الصغيرة والحصى.

[3]- نوع من الشجر

[4]- بندق يرمي.

[5]- ينظر: الحبيب النصراوي، الجاحظ معجميّا، ص:250 وما بعدها.

[6]- حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط2، 1410هـ-1990م، ص:67.

[7]- ينظر: الحبيب النصراوي، الجاحظ معجميّا، ص: 205.

حده"[1]، ومن المفردات العامية التي أوردها الجاحظ في كتبه: الإسطيل: وهو المتعامي، الزطوري: خبز الصدقة، المكدي: صاحب الكداء[2].

خاتمة:

لقد خدم الجاحظ الصناعة المعجمية العربية خدمة جليلة، إذ تعد مؤلفاته المتنوعة مصادر أساسية لصناعة المعجم في اللغة العربية، وتتجلى أهمية كتبه المتنوّعة في شتى بحوثه، ومختلف ألفاظ عصره ومستوياتها اللغوية، فهو يعرف الفصيح والعامي والمولّد والمقترض...وغيرها، وهذا ما خوّله ليبلغ منزلة عالية بين لغويي عصره وأدبائه، فقد استطاع الجاحظ أن يترك آراء ومؤلفات ثمينة مثلت ظاهرة موسوعية في عصره، وما تزال كتبه وأفكاره مثار اهتمام الباحثين والمعجميين المشتغلين في حقل صناعة المعجم، ولاسيما المعجم التاريخي للغة العربية الخاص بالعصر العباسي تحديدا، وكذلك المعجم التأثيلي والدلالي نظير كتبه التي خصّها بنشأة اللغة وتطوّرها.

المصادر والمراجع:

1-آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، الدار التونسية للنشر، ط1986م.

2-إبراهيم السامرائي، من معجم الجاحظ، دار الرشيد للنشر، العراق، ط:1، 1982م.

3-إبراهيم بن مراد، مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.

[1]- الجاحظ، البخلاء، تحقيق: أحمد العوامري وعلي الجارم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000م، ص:78.

[2]- ينظر: الحبيب النصراوي، الجاحظ معجميّا، ص:208-209.

4-إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م.

5-الجاحظ، البخلاء، تحقيق: أحمد العوامري وعلي الجارم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000م.

6-الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1388هـ- 1969م.

7-جورج غريب، العصر العباسي نماذج نثرية، دار الثقافة بيروت، د ت.

8-الحبيب النصراوي، الجاحظ معجميّا، مركز النشر الجامعي، تونس، ط2:، 2016م.

9-حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية،دار القلم ، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط:2، 1410هـ- 1990م.

10- طيبة صالح الشذر، ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 1998م،

11- علي القاسمي، صناعة المعجم التاريخي للغة العربية، مكتبة لبنان ناشرون، ط:1، 2013م.

12- عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، الجزائر.